

ان الانتاج الفكري في أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يكون الا وليد العوامل السوسيو اقتصادية التي تتجسد تجسيدا عينيا في نظام وعلاقات الانتاج ، والابنية الفكرية - في مجال العلوم الاجتماعية (حتى ولو تسترت بستار العلمية أو العلمية - ما هي الا انعكاس فوقى لعلاقات القوة الاقتصادية والسياسية الفاعلة داخل المجتمعات في زمن معين . ومن هنا فانه لا يمكن فهم تلك الانبئة بدون الرجوع الى الصراع المحدد لها ، أي بدون دراسة البنيات التحتية ، القاعدة المادية التي أفرزتها .

والنظريات السوسيولوجية ، التي ظهرت في الولايات المتحدة في بداية العشرينات والثلاثينات ، أي بعد أن أصبحت هذه الاخيرة قوة امبريالية عظمى وأصبحت تسعى الى بسط نفوذها وسيطرتها على العالم - تلك النظريات ، متى ولو كانت تخفي اهدافها ومراميها الحقيقية باعتبارها أدوات في خدمة الرأسمال الاحتكاري ، وراء المنهجية العلمية الصارمة ، فهي لا يمكن أن تفلت من القاعدة العامة ، قاعدة تبعية الفكر للواقع .

ان تلك النظريات - في نهاية التحليل - تعكس الاوضاع والتناقضات الاجتماعية في البلدان الامبريالية ، كما تعكس درجة التطور الكمي والكيفي للرأسمال الاحتكاري محاولة أن تظفي على مشاريعه في ادارة الاقتصاد والمجتمع طابع العقلانية ، وعلى الاستغلال المنهجي والنهب الفاحش لخيرات الشعوب طابع المشروعية .

لقد كشف لينين بحق أنه في المجتمعات الرأسمالية التي يمزجها الصراع ، فانه لا يمكن الحديث عن علم انساني محايد ... ان العلوم الانسانية في تلك المجتمعات لا يمكن الا أن تعكس الصراع اما بصورة مباشرة مفتوحة أو بصورة غير مباشرة ومتسترة .

انه على المستوى الداخلي ، أي في مواجهة المجتمعات الرأسمالية ، فان أغلب تلك النظريات السوسيولوجية (البنوية الوظيفية ، مدرسة التحليل النظمي ، المدرسة السلوكية) جاءت لتطرح عقلانية التطور الذاتي

لرأسمالية ، ونزوعها التلقائي الى التوفيق بين الطبقات المتعارضة في المجتمع ، بفضل التقدم التكنولوجي ، وبالتالي فهي تطرح لا جدوى النضال الطبقي في ظروف الرأسمالية المتطورة . أما على الصعيد الخارجي ، أي في مواجهة الدول المستقلة « العالم الثالث » فان تلك النظريات تقلب الاشكالية تماما ، اشكالية العلاقة بين العالمين ، والتي تنقسم أساسا بالهيمنة والتسلط والنهب ، اذ تصبح الامبريالية الجديدة في عرف المنظرين البورجوازيين عاملا من عوامل الارتقاء الثقافي ، أي عاملا من عوامل تشوير المجتمعات المتخلفة . !! والتشوير في عرف اولئك المنظرين يعني طبعا اعتماد وسلوك نفس الطريق الذي سلكته البورجوازية الاوروبية في بداية القرن التاسع عشر في اوربا انطبق الليبرالي في التنمية (نظرية روستو في المراحل الخمس للتطور الاقتصادي) جاهلة أو متجاهلة أن ذلك الطريق قد ارتبط بأوضاع اقتصادية دولية محددة ، اذ أنه وكما كشفت نظرية المركز – المحيط لسمير أمين عن ذلك ، فإنه لا يمكن الاعتماد على أي من البورجوازيات الوطنية في انجاز ما أجزته البورجوازية الاوروبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، نظرا للفارق الهائل بين الاثنين ، فبينما كانت البورجوازية الاوروبية تتمتع باستقلال ذاتي ، نرى أن كل البورجوازيات في « العالم الثالث » لا نتمتع كونها أدوات في يد الامبريالية تستخدمها لزيادة حجزها ونهبها لثروات وقدرات الشعوب الاقتصادية لقاء بعض التعويضات والامتيازات تحصل عليها تلك البورجوازيات « الكمبرادورية »

وقبل أن نستعرض بالتحليل والنقد بعض المدارس التي أثرت أكثر من غيرها في واقع السوسيولوجية الغربية الحالية ، وكان لها تأثير واسع ومباشر على قيام ونمو علم السياسة الليبرالي ، فاننا سنقوم أولا بعملية جرد عامة ومختصرة لاهم الخصائص التي تميز بها علم الاجتماع البورجوازي ، وللاسس التي يقوم عليها .

أولا : يتميز علم الاجتماع البورجوازي بنوعيته الغربية المتطرفة **Occidentalocentrisme** حيث يصبح الغرب هو بؤرة العالم ، هو مركز ملاحظة ومشاهدة العالم ، يصبح النموذج ، ونقطة الانطلاق لأي تنظير في مجال العلوم الاجتماعية .

ثانيا : تشكو النظريات السوسيولوجية والسياسية في اطار العلم البورجوازي من انعدام العمق التاريخي في التحليل ، فهي لا تهتم الا بالظواهر الحاضرة والآنية معزولة عن جذورها التاريخية ، عن التربة التي انتجتها وعن صيرورتها التطورية ، وحين تتعرض للتاريخ فانها تتعامل معه على اعتبار أنه مجرد وعاء زمني ، حيث تفصله عن التشكيلات الاجتماعية المرتبطة به ، وعن القوى الاقتصادية التي تصنعه . وهذا ما أوضحه بالتفصيل عالم الاجتماع نيكوس بولنتزاس **Nicos Poulantzas** حينما تعرض

بالنقد لهذه المدارس .

ثالثا : تشترك تلك النظريات في قاسم مشترك ، وهو محاربتها الضمنية والصریحة للديالكتيك الماركسي ، ولكل الاسس التي قام عليها الفكر الاشتراكي ، معتبرة أن الايديولوجيا - أية ايديولوجيا - تتنافى مع السوسولوجيا كعلم التي يجب أن تترفع عن الصراع العقائدي والسياسي الذي يجري في المجتمع المعاصر ، وهكذا فانهم يعتبرون الايديولوجية عبارة عن مجموعة من الافكار المضللة التي تجرف الحقيقة الواقعية ، كما أنها مجموعة من التصورات اللاعقلية والمتحجرة ، التي تعيق تطور العلم !!

ويرتبط بهذا انكارهم للقوانين التاريخية وللمنطق التاريخي في شرح الظواهر الاجتماعية .. وقد تنبه لينين لهذا الميل عند علماء الاجتماع البورجوازيين في عهده فكتب بقول « انه من أجل اكتساب شهرة عالم اختصاصي محترم في حقل العلوم الاجتماعية ، لا يحتاج الانسان أن يكون عالما ، أو أن يكتسب المعارف العميقة ، بل يكفي أن يثبت استحالة الاشتراكية ، والقضاء على الماركسية ، لكي يقال عنه بأنه عالم شهير ، ضاربا عرض الحائط بكل القوانين التاريخية » .

والهدف من هذا كله واضح طبعاً ، وهو اثبات استحالة التطور السنوي للمجتمعات وفق منطق التاريخ ، وبالنظر الى أنماط الانتاج التي تتغير بالضرورة وفقا لقوانين محددة .

وبلجاً علماء الاجتماع البورجوازيين الى عدة مقولات ، كمقولة الثورة الجنسية ، أو الثورة التكنولوجية لاختفاء التحولات الحقيقية والتناقض المتسع بين مصالح الجماهير العريضة من العمال ، ومصالح حفنة من الامبرياليين . وأمام زحف القوات الاشتراكية ، قوى الامل والتقدم ، هذا الزحف الذي يزعج السوسيولوجيين البورجوازيين ، عملاء الامبريالية ، فإن نزعة انتشأومية التاريخية تبدو واضحة في كتاباتهم ، إذ يعتقدون أن نهاية الرأسمالية هو نهاية للمدنية ولكل القيم الانسانية !! .

ويدور الحديث عند أصحاب الموجه الجديدة في السوسيولوجيا الامريكية عن نهاية الايديولوجيات وتقادم الصراع الايديولوجي في المجتمع الصناعي المتطور ، بفضل التقدم التكنولوجي الذي يسعى تلقائيا الى اذابة الفوارق انطباقية .

هكذا اذن ، وبجرة قلم تصبح التكنولوجيا عصى سحرية ، ويصبح الصراع الطبقي والقهر الاجتماعي ، قضايا متجاوزة في مجتمع الرأسمالية المتطورة ، وينسى أئمة الامبريالية أن الصراع الطبقي يتحدد بناء على العلاقة القائمة بين المنتجين ومالكي وسائل الانتاج داخل تشكيلية اجتماعية محددة ، وأن التكنولوجيا يمكن أن تستغل من أجل زيادة القهر والظلم ، وهو ما تشير عليه أوضاع المهمشين والسود في الولايات المتحدة . إذ أن التكنولوجيا حتى

وان استطاعت تقوية فعالية الانتاج الاجتماعي ، الا انها لا تقوى على قلب علاقات الانتاج التي تحتفظ بطابعها الطبقي .

رابعاً : تنزع جل المدارس السوسيولوجية المعاصرة نزعة برجماتية ، وهي نزعة تستخف بالنظرية وبالقيم ، اذ يصبح كل ما هو نافع صحيح عوض أن يكون كل ما هو صحيح نافع ، واذا كان بعض علماء الاجتماع البورجوازيين ينادون بضرورة أن يكون للعلوم الانسانية فائدة اجتماعية **Utilité Sociale** فان تلك الفائدة تتجه أساساً لجانب الطبقات المسيطرة ، حيث أصبح تقليداً متبعاً في الولايات المتحدة مثلاً أن يلحاً المسؤولون السياسيون على أعلى المستويات الى الاستفادة من خبرات المنظرين في مجال العلوم الانسانية يمدونهم بدراسات مفصلة عن طبائع وشعوب المناطق التي يريدون بسط نفوذهم الاقتصادي والسياسي فيها . ويذكرنا هذا بالدور الرجعي الذي لعبته الانتولوجيا **l'éthnologie** في بداية التغلغل الاستعماري المباشر . وما قدمته من خدمات الى مخططي الحملات العسكرية الغازية .

هكذا اذن نرى كيف تطفئ « نفعية الحقيقة الاجتماعية » وتطفئ معها التطبيقية الضيقة .

وبالموازاة مع ذلك ، تنشأ في الدول الغربية معاهد ومنتديات تتكلف بتكوين ملفات عن أمزجة أذواق المستهلكين ، وعن شواغل الناهخين ، وتقديم تلك الملفات جاهزة الى الشركات الاحتكارية والاحزاب السياسية البورجوازية التي تغير استراتيجياتها حسب المتطلبات الظرفية .

ويلعب علم النفس دوراً حيوياً في هذا المجال ، خصوصاً بعد انتشار وسائل الاتصال بالجمهور واكتسابها أبعاداً جديدة .

وقد بينت مونيك شارلو **Monika Charlot** عن دور الاساليب المستخدمة من طرف معاهد الرأي العام في مطاردة الناهخين وتعليب وعيهم وجرهم الى اتخاذ مواقف وقرارات قد تتناقض مع مصالحهم . ولهذا انعكاس على مجموع بنيات المجتمع الرأسمالي . اذ أصبحت جل القرارات تتخذ في غياب تام عن البرلمانات التقلدية التي لا تفعل أكثر من التصديق على سياسات تكون قد أعدت في منتديات خاصة « **Lobby** » من طرف

مجموعات من الاوليفارشية المالية . وقد أظهر هذا بوضوح **R. Gerard** **shwartzemberg** حينما تحدث عن الاساليب التي تستخدمها الجماعات المضاعطة من أجل احتكار السلطة الفعلية داخل المجتمعات الغربية ، وجعل القرارات المصيرية بالنسبة للجماهير الواسعة تقرر خارج المؤسسات الرسمية الشكلية .

خامساً : وبفعل تأثير الوضعية الجديدة **Néo-positivisme** والنزعة التجريبية ، فان علم الاجتماع البورجوازي أعطى أهمية قصوى

للقوائم المجردة ، واعتبرها حجر الزاوية في أية نظرية ، ولو نظرية وسطى .
وهناك انتقائية واضحة في جمع هذه القوائم وتصنيفها ، كما أنها تؤخذ على اعتبار أنها خالية من أي محتوى موضوعي ، كما أن علماء الاجتماع البورجوازيون لا يأخذون القوائم بصلاتها العامة بل يأخذون جزءا منها ، وقد انعكس هذا على صعيد النظرية ، حيث وجدت عدة سوسيولوجيات ، (سوسيولوجيا سياسية ، سوسيولوجية العلاقات الاجتماعية ، سوسيولوجية صناعية) وهذا وحده كاف للتدليل على عجز علماء الاجتماع الليبراليين على إيجاد نظرية عامة منسجمة ، وهذا أيضا هو ثمرة طبيعية لمحاولة عزل السوسيولوجيا عن الفلسفة عزلا تعسفيا .

سادسا : أما على صعيد التفسير (التفسير النظري) وهو أحد المقومات الأساسية للاستمولوجية الأساسية في أية نظرية علمية ، فإننا نلاحظ في هذا المجال ، وربما أكثر من غيره ، عجز النظرية السوسيولوجية الليبرالية عن الإحاطة بشمولية الظواهر الاجتماعية ، وذلك لغياب مبدأ تفسيري شامل **un principe explicatif** تعتمد عليه النظرية ، وتبنى عليه استنتاجاتها ويعطي لمجموع أجزائها التوافق والانسجام ، وذلك على غرار ما أنتت به المادية التاريخية حينما انطلقت من هذا المبدأ الشامل : أن تاريخ أي مجتمع ، إلى يومنا هذا ، ليس إلا تاريخ الصراع بين الطبقات ، وأن هذا الصراع هو محرك التاريخ . وأن البنية التحتية التي تحدد مضمون ومحتوى البنية الفوقية . فانطلاقا من هذا المبدأ التفسيري الشامل استطاعت الماركسية أن تبنى الفلسفة العلمية للتاريخ والمجتمع ، كما استطاعت أن تضع يدها على القوانين الموضوعية لتطور الظواهر الاجتماعية .

وسنحاول الآن أن نبرز عجز النظريات السوسيولوجية الليبرالية في الإحاطة بكلية الظواهر الاجتماعية ، كما سنحاول أن نبرز المضامين الأيديولوجية التي تنطوي عليها ، وذلك من خلال استعراضنا لبعض المدارس التي نرى أنها أثرت علم الاجتماع البورجوازي بعدد من المفاهيم والمقولات ، التي أراد بها أصحابها أحداث ثورة في ميدان العلوم الإنسانية بصفة عامة .
البنائية الوظيفية :

تطرح البنائية الوظيفية مقولة البنية ، ومقولة الوظيفة كنقاط انطلاقها للظواهر الاجتماعية ، وقد استعارت هذه المدرسة التي يعتبر هربرت سبنسر من أوادها الأولين هذين المقولتين عن البيولوجيا .

وترى هذه المدرسة أن الجسم الاجتماعي يشبه الجسم الإنساني من حيث أنه مجموعة من البنيات تقوم بمجموعة من الوظائف (I) وأن استقرار

(I) لا يجب أن يقع الخلط بين الوظائف والأدوار ، إذ أن مدرسة الدور تشكل مدرسة بمفردها ، ليست لها علاقة كبيرة بالمدرسة الوظيفية .

هذا الجسم يتوقف على مدى قدرة البنيات على القيام بالوظائف التي تمكن المنتظم السياسي أو النظام الاجتماعي ككل من التماسك والاستقرار ، وهكذا فإن هذه المدرسة تحاول أن تجيب على السؤال التالي : ما هي الوظائف التي يتعين على الجسم الاجتماعي القيام بها ليحفظ استقراره ؟ . وتأخذ البنيات هنا كل المنتظمات التي تقوم بمهام اجتماعية محددة بدءا من العائلة ، الى المدرسة ، الى المعمل ، الى البرلمان . ويمضي التحليل البنيوي وظيفي ليصل الى أن هذه البنيات هي أساس الحياة الاجتماعية ، وقد وجدت عبر كل العصور التاريخية تتغير أشكالها ، ولكنها هي هي من حيث الجوهر ، لتقوم بوظيفة حفظ استقرار المجتمع من التصدع : فإذا كان البرلمان اليوم هو الذي يقوم بوظيفة التشريع ، فإن القبيلة أو العشيرة القديمة هي التي كانت تقوم بهذا الدور في المجتمعات القديمة .

لنلاحظ أولا أن هذا التحليل يخلط بين المؤسسة الاجتماعية ، والبنية الاجتماعية **Structure, institution** ، باعتبار أن الأولى هي اطار تنظيمي ، قانوني لتركيبية اجتماعية معينة ، وأن الثانية (البنية) هي وحدة مادية تؤسس على ممارسات **pratiques** وعلاقات داخل التشكيلات الاجتماعية الواسعة (أنماط الانتاج والقوى الاجتماعية) التي يحدد مسارها وتطورها الصراع المادي بين الاضداد . ذلك أن المؤسسة ما هي في نهاية الامر الا محمل **Support** للبنية الاجتماعية وتعبير مركز عنها ، وبناء على هذا ، فانه لا يمكن اعتبار البرلمان بنية اجتماعية بالمعنى الوظيفي لان الصراع الحقيقي ، البراكسيس الاجتماعي بين الطبقات المتعارضة ماديا يقع خارجه .

ولنلاحظ ثانيا انه من خلال هذا التحليل يقع التركيز على « الاستقرار » استقرار النظام الاجتماعي من خلال عملية استمرار البنيات في القيام بوظائفها ، ولا يهم كيف يجب أن يتحقق هذا الاستقرار ، اذ يجوز للنظام أن يتخذ كل الاجراءات التي يراها قادرة على الحفاظ على الاندماج الاجتماعي عند هذا الحد يسهل علينا أن نرى كيف أن البنيو وظيفية تنقلب الى ايديولوجية رجعية تعارض مفهوم الديالكتيك ، والتغير والتطور الاجتماعيين ، الحتميين بفعل تصارع الاضداد : الرأسمالية والبروليتارية ، ثم يسهل علينا بعد ذلك أن نرى احدى نتائجها النظرية ، والتي تتمثل في الدعوة الى التعاون أو التصالح الطبقي حفظا لاستقرار النظام ، وهي نفس الاطروحة التي يردها الاشتراكيون اليمينيون ، وكل التيارات الاصلاحية . ولنلاحظ أخيرا أن التحليل بناء على البنية والوظيفة ، حتى وان بدا منطقيا باعتبار أنه يسعى الى ضبط الفوضى في الظواهر الاجتماعية من خلال ربطها ببنيات محددة ، الا أن حدوده تقف عند هذا المستوى ، اد أن البنيات في حد ذاتها لا تعني شيئا بدون تحليل المكونات المادية التي تشكلها ، وهو

ما يفرض البنيو وظيفيون القيام به .
وهكذا نجد أنفسنا مع أطروحات البنيو وظيفية ، أمام تحصيل
الحاصل ، أو مصادرة على المطلوب ، وهو نتيجة حتمية للمنهج المعتمد الذي
لا يسعى للنفاذ الى عمق الظواهر بقدر ما يسعى الى وصفها وتصنيفها .
وترتبط بهذه المدرسة ، تيارات سوسيولوجية أخرى نصبت نفسها
لمهاجمة مقولة الصراع الطبقي الماركسية ، فهي ترى أن المجتمعات الغربية
هي مجتمعات مفتوحة ، تتمتع بحركية اجتماعية **mobilité social** قوية ،
تجعل أخط الناس في السلم الاجتماعي قادرا على ولوج أعلى الوظائف
والوصول الى أعلى مستويات السلطة الاقتصادية والسياسية ، وهكذا فعندهم
أن مفهوم الطبقة كما حددها ماركس ، مفهوم لا يمكن الاعتماد عليه ، حيث
يستبدلونه بمفهوم الجماعة **Groupe** . ويلاحظ غياب أية مقاييس
موضوعية في تحديد مفهوم الجماعة ، حيث تتحدد في الغالب باعتبارها مجموعة
من الافراد بينها مصالح ، قد تكون اقتصادية ، أو نفسية ، أو عاطفية ،
ويحصل بينهم نوع من الانسجام والتماسك ، أين نحن من المفهوم الماركسي
العلمي للطبقات ، والتي يحددها بالقياس الى المكان الذي شغله في عملية
الانتاج الاجتماعي ، المحدد قانونيا . والجماعات عندهم هي حيوية ومتساوية
في القيمة كمواضيع للتحليل السوسيولوجي ، إذ لا فرق في ذلك بين جماعة
القمار ، أو جماعة النادي الرياضي ، والجماعات الاقتصادية ، كجماعات
العمل والانتاج .

ولا عجب في ذلك ، فلم الاجتماع البورجوازي المعاصر يتعذر عليه
التفريق بين الظواهر المهمة وغير المهمة في تشكيله العلاقات الاجتماعية .
هذا وإن واقع التركيب الاجتماعي في الدول الرأسمالية ينفذ ما تدعيه
السوسيولوجيا البورجوازية من وجود حركية اجتماعية قوية داخل المجتمعات
الغربية ، فالاتجاه نحو الاحتكار وتركيز الثروات لا زال هو السمة الأساسية
للبنية الاقتصادية الرأسمالية ، وقد بلغ ذروته مع ظهور الشركات المتعددة
الجنسية .

التحليل النظامي أو النسقي وفراغ العلية السوداء L'analyse systémique
أما التحليل النظامي فانه ينطلق من مقولة النظام **Système** ومحيطه
ليحلل أنواع العلاقات التي يمكن أن توجد بينهما محاولا من خلال ذلك
الاحاطة بكلية الظواهر المجتمعية وحقائقها ورصد تطوراتها الممكنة . ويعتبر
طالكوت باسونز **T. Parsons** من رواد المدرسة السيستميكية في
السوسيولوجيا . وعندما انتقل دافيد إيستون **D. Easton** بهذه النظرية
الى المجال السياسي ، أي لتحليل الظاهرة السياسية فانه توصل الى الأطروحة
التالية : إنه لكي نفهم النظام السياسي فانه يجب وضعه في إطار محيطه
الخارجي والعلاقات المتبادلة بين أجزاء النظام السياسي . والنظام السياسي

هو مجموع البنيات والقوى التي تشارك في اتخاذ القرارات بصفة مباشرة .
إما المحيط فانه يتكون من كل البنيات والقوى التي تتأثر بقرارات وأعمال
النظام السياسي أكثر مما تؤثر فيه .

وللنظام السياسي مدخلات **Inputs** ومخرجات **Outputs** ، وهذه
المدخلات هي وسائله لربط الصلة بمحيطه ، فمن طريق المدخلات يتلقى النظام
كل أنواع المطالب التي تتقدم بها عناصر المحيط (أجزاء سياسية ،
نقابات ، جماعات ضاغطة ، قوى وفكرية سياسية واقتصادية واجتماعية)
وبعد دخول المطالب الى داخل النظام ، تتحرك أدواته (حكومة ، برلمان ،
كل القوى السياسية التي تحتكر السلطة) للاستجابة لهذه المطالب في شكل
قوانين وقرارات سياسية .

ان هذه الاطروحة بغض الطرف تماما على كل ما يجري داخل النظام ،
عن الطريقة التي يتم بها صنع القرارات ، وعن الميكانيزمات التي تتحكم في
العلاقات بين النظام ومحيطه ، كما أنها لا تقول أي شيء عن الدور الذي تلعبه
القوى الاقتصادية داخل النظام ، أو داخل العلبة السوداء **la boîte noire**
كما يسميها أصحابها . ثم انها تقوم العلاقات بين النظام ومحيطه لا
باعتبارها علاقات صراع بين مصالح متضاربة - على اعتبار أن النظام له
استقلال ذاتي ، وهو ما سنبين استحالة في المجتمع الرأسمالي - بل علاقات
تكامل وتعاون متبادل . ولنا أن نفهم من هنا مغزاها الطبقي ونتائجها
الايديولوجية (عقلانية البناء الرأسمالي ، وامكانية قيام تصالح طبقي داخله)،
مما يجعل ما قلناه بصدد نقد البنيو وظيفية صحيحا هنا أيضا .

النظرية السلوكية Behaviorist

انتشرت هذه المدرسة على نطاق واسع في الولايات المتحدة ، معتمدة
على علم النفس ، وعلم النفس الاجتماعي ، والطرق الاحصائية والقياسية في
التحليل وادعت أنها حاملة لواء التجديد الجذري في ميدان العلوم الاجتماعية ،
حيث اعتبرت أن كل المدارس والتيارات التي سبقتها تتناول الظاهرة
الاجتماعية مثاليا لانها تدخل القيم والمبادئ والفرضيات ، وهذا ما يضيف
عليها طابع اللاعلمية . وقد اعتمدت مقولة السلوك **comportement** كوحدة ، أو
جزئية أساسية في التحليل ، ونقطة انطلاق عند رصد كل ظاهرة اجتماعية .
ويمكن تلخيص أطروحة هذه المدرسة في ميدان علم السياسة الليبرالي
كما جاء بها هانز يولاد ، أول من حاول تطبيقها في ذلك الميدان على
هذا النحو :

انه لا يمكن عزل الظاهرة السياسية بمعزل عن دراسة سلوك القادة
وصانعي القرارات السياسية ، وهذه الدراسة لا تغني عن علم النفس وعلم
النفس الاجتماعي . وما القرار السياسي الا حصيلة التزاوج بين المؤثرات
الخارجية على القائد وبنية النفسية سواء منه الواعية أو غير الواعية .

لعل أهم ملاحظة تتبادر الى ذهننا عند محاولة نقد أطروحة السلوكية أنها تأخذ عالم صانعي القرارات في عزلة عن التركيب الاجتماعي الشامل الذي يعمل فيه أولئك والتي تتحدد أساسا بنمط الانتاج السائد ، وبملاقات الانتاج المهيمنة وميزان القوى بين الطبقات . ان هذه المدرسة لا تعترف بأولوية الوجود الاجتماعي على أنماط الوعي الفردية للقادة ، اذ تلغي دراسة الخصائص النفسية لهؤلاء وحوافزهم الفكرية . ومن ثم يصر الى حصر البراكسيس الاجتماعي بكل تناقضاته الى فعالية فئة أو مجموعة من الفئات القيادية . ان التركيز على دراسة سلوك القادة ، والمؤسسات التي يعملون داخلها يعني عمليا الاعتراف باستقلال شامل *autonomie* للنظام السياسي وأداته الرئيسية الدولة ، الذي يظهر لنا التحليل الماركسي التاريخي أنه مجرد أداة تستعملها الطبقة المسيطرة لقمع الطبقات المستضعفة بواسطة شبكة من الادوات ، منها القسرية (جيش ، بوليس) ومنها تلك التي تظهر على شكل تنظيم عقلاني للمجتمع (ادارة ، مدرسة) ثم ان غياب الاهتمام بقضايا المثل والقيم الانسانية يقرب هذه المدرسة من الفرقة البرجماتية ، ويجعلها مجموعة من الفرضيات الفجة لا تتسجم ورسالة العلم الانسانية .

النظرية الاوليفارشية ونظريات النخبة :

ترتبط النظرية الاوليفارشية بثلاثة أسماء رئيسية : روبرتوميلشلز

R. Michels والفريد باريتو **A. Pareto** وكايطانوموسكا **C. Mosca**

وتتلقي أفكارهم الاساسية حول هذه النقطة : ان دراسة نقدية للتاريخ تظهر ان النظرية الماركسية حول صراع الطبقات غير صحيحة ، ذلك ان الصراع الاساسي في المجتمعات عبر الزمان والمكان هو الصراع بين الاوليفارشيات أو النخب . وكل نخبة تحتكر السلطة تحاول انتاج نفسها ، أي تحاول أن تضمن لنفسها الاستمرارية . ويتحدث باريتو في هذا الصدد عن القاعدة الحديدية لاوليفارشية بمعنى أن البنية الاوليفارشية للكامل في أي مجتمع من المجتمعات مسألة حتمية .

والواقع أن الاساس النظري لهذه المدرسة قد أخذ روادها عن ماكس فيبر **M. Weber** عالم الاحتماق الالمانى الذي كان قد لاحظ تعاظم دور البيروقراطية في المجتمعات الغربية ، واستخلص من ذلك أنه اذا كان هناك وجود للطبقات داخل المجتمعات الغربية ، فانه لا يمكن تحديدهما على أساس امتلاك وسائل الانتاج الاقتصادية، بل على أساس احتكار السلطة السياسية، حيث جعل من البيروقراطية طبقة مستقلة *autonome* لها مصالحها الخاصة، والتي تتناقض - في المجتمعات الصناعية - مع مصالح الطبقات المسيطرة اقتصاديا ، وهكذا يجري الحديث عنده عن طبقة سياسية .

وقد أخذ دماكس فيبر على الماركسية أنها أخطأت كثيرا في تحديد العلاقة بين الاقتصادي *économique* والسياسي *politique* حيث اعتبرت

السلطة السياسية بكل بنياتها تعبيراً مركزاً عن الاقتصاد ، واعتبرت الدولة بكل أجهزتها مجرد أداة فوقية .

ويأتي عالم الاجتماع الأمريكي ورايت مايلز **W. Miles** ليحاول تأكيد ذلك ، حيث يقسم السلطة الحاكمة في أمريكا الى عدة نخب (عسكرية ، ادارية ، سياسية) تحتكر السلطة الفعلية في المجتمع رغم عدم امتلاكها لوسائل الانتاج ، ويستخلص من ذلك هو الآخر أن الماركسية قد بسطت اشكالية العلاقة بين السياسي والاقتصادي حيث اعتبرت أن الطبقة المسيطرة اقتصادياً هي نفسها المسيطرة سياسياً ، واعتبرت السياسة تعبيراً مركزاً عن الاقتصاد .

وينطلق برنهام **J. Burnham** هو الآخر من ملاحظة عن امتلاك وسائل الانتاج في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة فقد الكثير من أهميته ، ولم يعد يمكن أصحابه من الهيمنة السياسية ، وذلك لان الرأسمال قد فصل عن المراقبة والتوجيه ، بظهور طبقة المدراء **Managers** ، مدراء الشركات الكبرى الذين يملكون سلطة حقيقية لا تقل عن سلطة أصحاب رؤوس الاموال . لقد أظهر سمير أمين أن أولئك المدراء ، ليسوا أكثر من أجراء للمشروع الرأسمالي وأن برنهام قد وقع لديه خلط بين التوزيع التقني للعمل ، الذي يفرض التخصص ، وبين علاقات الانتاج ، وهي علاقات رأسمالية بالاساس . ان ماركس ولينين لم يطرحا أبداً العلاقة بين السياسي والاقتصادي بتلك البساطة التي عرضها بها مفطرو النخبوية البورجوازية . لقد أبان أنها علاقة مركبة ومعقدة تنتقل فيها أصعدة التأثير المتبادل من نمط الانتاج الى نمط آخر (في نمط الانتاج الفئويدي يمكن أن تظهر بعض الفئات المسيرة على الصعيد السياسي وهي مستقلة شيئاً ما عن طبقة الاقطاع . وفي العهد النابليوني ، كانت الفئة العسكرية تملك استقلالاً نسبياً عن البورجوازية الزراعية والصناعية) .

ولكن يبقى كقاعدة عامة - في النظرية الماركسية - أن الطبقة المسيطرة اقتصادياً هي التي تفرض اختياراتها وفلسفتها على أجهزة الدولة ، كما أنها تحاول فرض ايديولوجيتها على كل أجزاء النظام السياسي ، تلك الايديولوجية التي تسعى الى اظهارها على أنها ايديولوجية كل المجتمع .

يلاحظ بولنتزاس بحق أن النظريات النخبوية وأطروحات «البيروقراطية» تخلط خلطاً لا علمياً بين جهاز الدولة **appareil** وسلطة الدولة **pouvoir** فاذا نظرنا الى أجهزة الدولة في حد ذاتها ظهرت لنا وكأنها تنظيم مستقل عن هيمنة القوات الاقتصادية المسيطرة ، ولكن اذا نفذنا الى العمق ، وتتبعنا ما تقوم به من أعمال ونتائج هذه الاعمال على الوسط الاجتماعي ، ظهرت لنا طبيعتها الطبقيّة لهذا يتحدث ماركس عن الانتماء الطبقي للدولة ولهذا يلح لينين على ضرورة استيلاء البروليتاريا ، باعتبارها الطبقة

الثورية على أجهزة الدولة وتحويلها ، وذلك لما يمثله الصعيد السياسي من أهمية .

من هنا يتضح لنا أن محاولة شرح تناقضات المجتمع الرأسمالي بناء على صراع النخب هي رد فعل ، جعي على الطرح الديالكتيكي لتلك التناقضات ، هذا الطرح الذي قامت به الماركسية فأتمرت فلسفة ثورية لتغيير العالم . ولا غرور فقد حملت كل تلك المدارس حملة مسعورة ضد نظرية صراع الطبقات العلمية لاهثة وراء بدائل نظرية موهومة ، عجزت كلها عن شرح قوانين التاريخ ، ديالكتيك الظواهر الاجتماعية وتطورها .

خلاصة عامة .

إن أزمة السوسيولوجيا الليبرالية هي من واقع أزمة الامبريالية ، أزمة نمط حضارة وأسلوب انتاج لا يعش الا على النهب والابتزاز والدمار . أزمة نظام اجتماعي أصبح يتقلص يوما عن يوم بفعل ظهور المد الانعتاقى للشعوب المقهورة التي أصبحت اليوم ، أكثر من أي وقت مضى تعي دورها ومسؤولياتها في عالم اليوم ، تعي رسالتها المجيدة التي تتمثل في بناء عالم لا مكان فيه للاستغلال الرأسمالي . ولن تخفي تنظيرات البورجوازية وجه الامبريالية الحقيقي مهما حاولت ذلك وراء أقنعة العلم ... وأي علم ذلك الذي يضع من بين اهتماماته الاولى خدمة أهداف الطبقات المسيطرة في عالم الامبريالية . ومع ذلك فإن السوسيولوجيا البورجوازية عاجزة عن وقف الشعور بالسخط والتمرد الذي يظهر في صفوف طبقات الشعب الواسعة داخل الدول الرأسمالية نفسها ، وهذا ما أكده بوبوف حينما قال : « وبالرغم من كثرة الانظمة التي أوجدها علماء الاجتماع البورجوازيون والفلاسفة الاجتماعيون ، فإنهم لا يستطيعون أن يقترحوا على طبقتهم أية أفكار بناءة ، وليس في استطاعتهم أن يرفعوا أفكارا وأهدافا تقدمية ، قادرة على بث روح الحماس في طبقات الشعب الواسعة . وفي هذا تعبير عن البؤس الفكري لعلم الاجتماع البورجوازي .

من المصادر المعتمد عليها في الدراسة :

س. ي. بوبوف. نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر - دار دمشق ، 1973

Nicos Polantzias : Les classes sociales dans le Capitalisme aujourd'hui - Seuil

N. Poulantzas : Pouvoir Politique et classes Sociales - Maspero 1971